تقديم

فى مساء صيف من عدة سنوات كنت أنا وابنتى جميلة فى جولة فى الجوار عندما ابتدرتنى فجأة وبدون سابق إنذار- متسائلة : «ماذا ستفعل يا أبى إذا أصبحت أنا مسيحية ذات يوم؟» . وقد نطقت بذلك بجدية يستشف منها أن التساؤل لم يكن بالنسبة إليها مجرد افتراض .

وقد وقفت عندئذ لا أقدر على النطق، وظننت لثوان عدة أن قلبى قد توقف عن الخفقان. أحسست بفراغ داخل صدرى وفى أحشائى .

هل كانت هذه ابنتى التى تسألنى هذا السؤال، وهى التى رأتنى ألقى المحاضرات عن الإسلام بطول البلاد وعرضها، وهى التى أصطحبها كل ليلة إلى الصلاة، كما أنها هى التى تبادلت معها العديد من النقاشات حول الدين؟ . لم أتخيل قط أنها سوف يخطر ببالها مثل هذه الفكرة.

«هل تعرفين الكثير عن المسيحية؟» ألقيت عليها السؤال محاولاً كل جهدى ألا أبدو منزعجًا.

«إنما كنت أتساءل إن كنتَ سوف تثور فى وجهى؟ هل ثارت جدتى وثار جدى فى وجهك عندما تخليت عن المسيحية»؟

كانت لفتة ذكية منها أن تجرى المقارنة مما ساعدنى على الهدوء قليلاً .

«لقد انهارت أمى وهددنى أبى بطردى إلى خارج المنزل»، ألقيت إليها بالإجابة وأنا أتذكر الصدمة والقلق اللذين ارتسما على وجه أمى، وثورة أبى التى خرجت عن السيطرة، وكا لعادة فقد اعتبرها إهانة شخصية : «هل تظن بأنك فى غاية الذكاء - جيفرى- حسنًا سوف ترى! سوف ترى كيف ستحب الحياة فى الشوارع! لن

تكون هناك أية كلية لك يا غلام! سوف تعيش فى أدنى مستوى وفى الأزقة وسط أفكارك الطائشة!).

«هل ستثور علىَّ؟» كررت السؤال.

«الثورة ليست هى الكلمة الصحيحة» حاولت بسرعة إعادة ترتيب مشاعرى. لا يسعنى إنكار أننى سأحس بالكثير من الضيق؛ لأننى أجد الكثير من السلام والجمال فى الإسلام، وأردت دائمًا أن يشاركنى أبنائى فى ذلك. إن ما يعنينى حقًا هو عائلتى وعقيدتى فقط. وسرنا يحيط بنا الهدوء لحوالى دقيقة ثم ابتدرتنى قائلة: «إننى لا أفكر حقًا فى أن أصبح مسيحية يا أبى، لكننى أظن فى بعض الأحيان أن الأمر سيكون أسهل كثيرًا حين لا تصبح مسلمًا».

ويبدو أننى قد فشلت فى إخفاء القلق الذى انتابنى. لم أكن أرغب فى أن يخشى أطفالى من أن يخبرونى بأفكارهم عن الدين؛ فمن الصعب أن تنشأ مسلمًا فى أمريكا، وأحسست أن من المهم أن يكون فى مقدورهم التحدث معى فيما يخص مشاكلهم إذا أردت أن أمد لهم يد العون. كل ما فى الأمر أننى لم أتوقع هذا السؤال على الإطلاق؛ لذلك أظن أنه من الأفضل إعادة طرح هذا السؤال.

«جميلة، أولاً وقبل كل شىء يتوجب عليك أن تفهمى أننى سوف أظل أحبك على الدوام بغض النظر عن أى شىء. لقد أحببتك من يوم ولادتك، منذ اللحظة التى وضعتك فيها الممرضة بين يدى، ثم حملتك بين ذراعى وكنت أتجول فى العنبر ذهابًا وإيابًا وأنا أنظر إليك. لقد كنت فى عالم آخر- لقد حلقت فى السموات! وعندما طلبت الممرضة منى إعادتك إليها، لم أكن لأتركك، ولن يستطيع قلبى فعل ذلك على الإطلاق- إنه ملكك إلى الأبد. وعندما تكبرين فسوف يتوجب عليك أيضًا أن تفعلى ما تعتقدين أنه الصواب، وسوف أكون هناك؛ لأمد لك يد العون والنصيحة، ولكن فى النهاية سيقع على عاتقك فعل ما تشعرين أنه الأفضل، حتى حين تختلف أمك وأختلف أنا معك. إننى لا أرجو إلا أن تحددى اختياراتك بعد تفكير عميق وبذكاء. لكن على أية حال، لما تشعرين أنه من الصعوبة بمكان أن تكونى مسلمة؟».

ولقد بحثنا فيما تبقى من سيرنا ما يتعلق ببعض المسائل الدينية وأيضًا على ما أذكر الخروج مع الجنس الآخر، ولكن يمكننى الادعاء بأن ما سبق لم يشكل فى الحقيقة قضايا حساسة بالنسبة لها، أو حتى ذلك الحين على أية حال. وأعتقد أنها طرحت هذه الأمور من أجل إضفاء بعض التحديد على شعور بعدم الارتياح العام لكونها مسلمة. وعلى الرغم من الذكاء الحاد الذى تتمتع به فلا أظن أنها فهمت وهى فى سن التاسعة لماذا شعرت بهذا التشويش الحاد بسبب الإيمان أو المعتقد الذى ورثته. لكن مثل ذلك مجرد البداية لما يمكننى توصيفه بأنه مرحلة الانتقاد والاعتراض من خلال النمو الدينى لأطفالى؛ لأنهم سوف يطرحون الأسئلة ويثيرون التحفظات تجاه ممارسات المسلمين ومعتقداتهم.

وفى المقابل، لم يكن من المفروض من ناحيتى أن يصدمنى سؤال جميلة بهذا القدر الكبير. أعتقد أن أغلب الأطفال الأمريكيين ذوى الآباء المسلمين قد مروا بمشاعر مماثلة فى أوقات مختلفة، فمن البداية، قد ولدوا داخل جماعة ذات اعتقاد تنظر إليها الولايات المتحدة فى غالبيتها نظرة دونية ممزوجة بالخوف. للأطفال رغبة طبيعية فى التواؤم، ومن ثم يصبح من المزعج للغاية أن يكونوا مرتبطين بأناس محتقرين ومنفرين. وقد تعرض الإدراك العام للإسلام لضمور ملحوظ منذ الهجمة الإرهابية فى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، لكن التوجه الأمريكى العام تجاه المعتقد الإسلامى ومعتنقيه كان على الدوام استنكاريًا. أتذكر وثيقة بحثية ظهرت قبل عام ٢٠٠١م نصت على أن ما يتعدى نسبة تسعين فى المائة من التشخيص والتصوير الخاص بالمسلمين فى القرن الأخير داخل الروايات والأفلام التى باللغة الإنجليزية كان سلبيًا. وتأسيسًا على ما رأيت فى طفولتى، فإن شعورى الباطن أن ذلك يطول أيضًا وسائل الترفيه الأخرى مثل التليفزيون، ومسلسلات الأطفال، وبالتأكيد كتب الفكاهة، وأيضًا فى ألعاب الڤيديو فى الوقت الحالى.

يقضى الطفل جزءًا كبيرًا من حياته فى المدرسة، ويتوقع الطلبة المسلمون أن يجابهوا بالتعصب الأعمى هناك، حيث فى مقدور الشباب فى بعض الأوقات أن يكونوا أشرارًا للغاية، لكن سوء الحظ الأكبر يقبع فى أن بعض المدرسين يصبحون ضيقى الأفق مثل بعض الأطفال، ويستغلون الفصل الدراسى لإلقاء مواعظهم

محدودة التفكير. بدأت التحدث علنًا عن الإسلام منذ ثمانية عشر عامًا مضت، ومن وقتها استمر الآباء والأمهات المسلمون فى الشكوى إلىَّ من المدرسين الذين يحطون من قدر الإسلام فى الفصل. وقد جابه بناتى نفس الأمر خلال فترات تعليمهن. وفى هذا العام، قال مدرس علم التربية المدنية لابنتى «فاتن» فى الصف السابع: إن الإسلام يشجع العنف، بينما تشيع المسيحية السلام. وأبدت معلمة ابنتى «سارة» فى الصف التاسع تعليقًا عن مدى إنكار المسلمين للجميل حيث وفقًا لزعمها «نحن نستمر فى إرسال المعونات الإنسانية لهم، بينما هم يحافظون على توجيه الهجمات الإرهابية إلينا»، هناك أيضًا شكوى مريرة تتعلق بالتعليم وتسمع بين الحين والآخر تتلخص فى أن العطلات الإسلامية لا توضع فى الاعتبار على الإطلاق فى المدارس- حتى عندما يقوم الوالدان المسلمان بإعلام المدرسين والإداريين عنها- بينما يطلب من الطلبة المسلمين فى الوقت نفسه المشاركة فى الاحتفالات المدرسية المتعلقة بالمناسبات اليهو-مسيحية وإلى جانب مواجهة التحامل، يُدفع الأطفال المسلمون بعيدًا ناحية الحدود الهامشية للمجتمع الأمريكى.

يبدأ معظم الأمريكيين فى الخروج مع الجنس الآخر- وهم لم يبرحوا المدرسة الابتدائية - بينما يحظر هذا الأمر بتاتًا بالنسبة لمعظم المسلمين، بغض النظر عن المرحلة العمرية. يلقى تعاطى الكحوليات - والذى يحرمه الإسلام - تشجيعًا واحتفاء فى أمريكا. يهدف تصميم الأزياء الغربية إلى استعراض الجمال الأنثوى، بينما يذهب الزى الإسلامى إلى أقصى حدود إخفائه عن النظر العام. ويصاب المهاجرون المسلمون الذين يأمرهم دينهم وثقافتهم بمعاملة الأكبر سنًا بأقصى احترام، يصابون بالصدمة من عدم الاحترام الذى يظهره الأطفال الأمريكيون تجاه آبائهم، ويمكن إعطاء المزيد من الأمثلة، لكن ما سبق يبين أن المسلم الملتزم فى أمريكا سيكون خارج نطاق التيار السائد بشكل كبير.

وعلى الرغم من وجود نقاط من التناقض الذى لا شك فيه بين الإسلام ودين الثقافة الشعبية الأمريكية، لكن مسافة التباعد المفهومة بينهما قد تتعاظم بسبب من الخلط بين الدين والثقافة. تدار معظم المساجد فى أمريكا من قبل المهاجرين

والطلاب الأجانب الزائرين، حيث يساوى معظمهم الإسلام مع نسخة الإسلام الخاصة بمحل ميلادهم، وهذه النسخة غالبًا ما تتضمن عادات وتوجهات ليست ذات أصول «إسلامية»، وفى الأغلب الأعم تميل الزعامات، من أجل امتصاص التنوع فى المدارك الثقافية داخل المجتمع الإسلامى الأمريكى، تجاه الرؤية والنظرة الأكثر تشددًا، حتى ولو كان لهذه النظرة دليل ضعيف على أحسن الأحوال من القرآن والأحاديث النبوية. وقد يكون هناك العديد من الأسباب وراء ذلك. يميل الناس إلى الخوف من التشدد والجمود وغالبًا ما يربطون ذلك بالتدين الشديد، أو يكون ذلك هو رد فعل تجاه الإباحية البادية فى الثقافة الغربية، أو قد يعكس ذلك أن المسلمين يفضلون بشكل عام التمسك بالجانب المتشدد فى المسائل الدينية، وأيضًا قد يكون الأمر مجرد أن المتشددين هم النموذج لأكثر الفئات توحدًا وإصرارًا داخل المسجد.

هذا الميل الخاص بالتوجه ناحية النظرة الأكثر تشددًا يلاحظ على وجه الخصوص فى معاملة النساء داخل المجتمع الإسلامى الأمريكى. وعادة لا تحظى المرأة المسلمة بالتشجيع على الحضور إلى الصلاة المفروضة فى المسجد، وعندما تفعل النساء ذلك فإنهن يوضعن فى غرفة منفصلة بعيدًا عن ساحة الصلاة الرئيسية. بالتالى فلن يرى الزائرون للمسجد فى العادة إلا رجالاً حاضرين. ويحدث الفصل بين الرجال والنساء المسلمين فى معظم المناسبات الاجتماعية مثل الرحلات والمحاضرات والمآدب واحتفالات يوم العيد والمؤتمرات. كما يحظر رسميًا على النساء المسلمات الحصول على مقاعد الرئاسة فى العديد من الجماعات، ونادرًا ما تضم امرأة إلى مجالس الإدارة أو اللجان التنفيذية.

إذا وضعنا فى الاعتبار أن قيادة المؤسسات الإسلامية الأمريكية هى بيد المسلمين الذين تربوا خارج أمريكا، فيتوجب علينا أن نتوقع أن النقاش والتوجهات التى للمسجد سوف تتناقض مع التيار الرئيسى، وهنا أيضًا يتسبب اندماج الدين وثقافة المنشأ فى إعطاء المسلمين المولودين فى أمريكا شعورًا بخيبة الأمل الناجمة عن عدم الالتقاء الفكرى فى المسجد. مشكلة العديد من الشباب المسلمين هى فى الحاجة إلى تبنى أسلوبين من التفكير يمكن أن يبدوا متناقضين تناقضًا جذريًا. يؤكد المسجد بشكل هائل على التقاليد والانصياع، بينما يجد القسم الأعظم من الثقافة

الأمريكية العقلانية والفردية. يوقر المسلمون قواعد ومقررات السلوك التى تحظى بالتأييد بوصفها خالدة وغير قابلة للتغيير، بينما يروج التيار الرئيسى التواؤم والابتكار. يعطى النظام التعليمى الأمريكى أهمية للنقد والتساؤل الموضوعى، بينما يظل المجتمع المسلم يبدى مقاومة شرسة لذلك عندما يطبق على الإسلام. تعلم المدارس الأمريكية الأطفال كيف يعترضون وكيف يتساءلون، بينما يعلم المسجد الأطفال المسلمين ألا يتساءلوا عن تراثهم الدينى. وبطبيعة الحال يواجه كل دين فى أمريكا توترات مماثلة، لكن فى حالة الإسلام فإن الكثير من تراث المسلمين قد اكتسى مثالية لا تترك إلا حيزًا محدودًا من أجل إعادة التفسير والتواؤم، وبالتالى تتوفر مساحة أكبر لخلق الشكوك فى عقول الشباب المسلم.

وهكذا فإن الأطفال المسلمين فى أمريكا يولدون داخل صراع لثقافتين مختلفتين جذريًا: الثقافة الفرعية للمسجد، والأخرى الأمريكية الحاكمة. وبالحكم من خلال الغياب الفعلى للأجيال الثانية والأخيرة عن أنشطة مجتمع المسلمين، يبدو من الواضح أن الغالبية العظمى منهم قد اختاروا تجنب المواجهة عن طريق الابتعاد الكامل عن المسجد وعن بقية المسالك الإسلامية، ولا يوجد ما يبعث على الدهشة فى ذلك. لقد نشأ الجيل الثانى داخل أشد ثقافات العالم حركية، وهى الثقافة التى تخترق وتؤثر حتى على أقصى أطراف الأرض ابتعادًا. تنتشر الموسيقى، والتكنولوچيا، والترفيه، والأزياء، والأخبار الأمريكية إلى جميع أنحاء العالم. يغنى الأطفال فى البلاد الأخرى بما فيها البلاد الإسلامية أغانى البوب الأمريكية، ويتتبعون مسيرة النجوم الأمريكيين ويشاهدون الأفلام الأمريكية، ولديهم أبطال الرياضة الأمريكية المفضلون، ويأكلون الوجبات السريعة الأمريكية، ويرتدون آخر صيحات الموضة الأمريكية. وإذا كان لأمريكا مثل هذا التأثير فى البلاد الأخرى، فيمكن لنا التأكد من أن وجهة نظر وتفكير الجيل الثانى ستكون أمريكية خالصة. لكل هذه الأسباب السابق ذكرها ولأسباب أخرى سوف تناقش فيما بعد، تبدو الثقافة الفرعية الخاصة بالمسجد إلى الكثير منهم مجرد النقيض التام للمجتمع الأكبر الواجب عليهم معرفته والحياة والعمل داخله. وحيث تتمسك زعامات المسلمين بهذه الثقافة الفرعية بوصفها الشىء الأقرب إلى النموذج العملى للإسلام الحقيقى،

يصبح من الصعوبة بمكان على العديد من الأجيال الشابة أن يروا أهمية وارتباطًا للإسلام بحياتهم. إذا أضفنا ذلك إلى ما سبق ذكره، فأنا أعتقد أنه سيصبح مفاجأة بحق إذا لم يتساءل طفل مسلم أمريكى أو طفلة فى وقت ما عن شرعية عقيدته أو عقيدتها.

نحتاج أيضًا إلى أن نعرف أن الأمر لا يقتصر على عدم ارتياح معظم الشباب المسلم إلى المجتمع الإسلامى الأمريكى، لكن المجتمع الإسلامى أيضًا لا يرتاح كثيرًا إليهم. مثلهم مثل المهاجرين الآخرين، يصاب الكثير من الجيل الأول من المسلمين بالمتاعب الناجمة عن الفجوة الثقافية التى تنشأ بينهم وبين الجيل الثانى، حيث يكتسب الجيل الثانى وبسرعة عادات وأساليب التفكير الأمريكية، ويشكل ذلك للأكثر تقوى ما يمكن أن يؤدى إلى كارثة دينية. يعود السبب فى ذلك إلى النظر إلى ثقافة الوطن بوصفها إسلامية وإلى أمريكا بوصفها غير إسلامية، وعندما يصل الأمر إلى أساليب التصرف؛ فإن غير إسلامية تعنى «خطأ» أو على الأقل «غير مرغوبة»؛ لذلك فإن الكثير من المهاجرين المسلمين فى غاية الاحتراس لأية علامات على أن الجيل التالى قد أصبح متأمركًا. ويشكو المسلمون الأمريكيون الشباب فى العادة من أن الجيل الأكبر يواصل اختبار إخلاصهم لثقافة الوطن الأصلى، ويتحول الأمر إلى مأساة عندما لا يتصرفون مثل الشباب «هناك فى الوطن». وعلى النقيض، وبالرغم من أن المجتع الحاكم قد يبدى الجهل والأحكام المسبقة فى بعض الأوقات، فإن معظم الشباب المسلم الذين اتصلت بهم يؤكدون على أن غير المسلمين هم فى العموم أكثر قبولاً لهم من المجتمع المسلم. بالتالى فهذا عنصر آخر يساهم فى إقصاء الجيل الثانى بعيدًا عن المسجد.

من الجوهرى لأجل حيوية أى مجتمع دينى أن يكون قادرًا على اجتذاب وربط الأجيال الجديدة والمتحولين. بهذا المقياس، وبغض النظر عن تكاثر المساجد والمؤسسات الإسلامية، فإن مجتمع المسلمين فى أمريكا ليس بأحسن حال. لقد بدأت الموجة الأكثر حداثة لهجرة المسلمين إلى أمريكا فى أواخر الخمسينيات وما زالت مستمرة إلى اليوم. كان ينبغى الآن أن تظهر أعداد معتبرة من الأجيال المسلمة

الثانية والثالثة تعيش داخل الولايات المتحدة، لكن هناك القليل النادر للغاية لعلامات على الجيل الثانى .

ومنذ الستينيات كان هناك أيضًا أعداد ضخمة تدخل الإسلام من جانب مجتمع الأمريكيين ذوى الأصول الأفريقية، وذلك مع تيار منتظم وبطىء يدخل الإسلام آتيا من بقية السكان، لكن غالبيتهم يتحركون بعيدًا عن مجتمع المسلمين ولا يشاهد مطلقًا إلا القليل النادر من أبنائهم وأحفادهم فى المسجد.

تظهر منطقتنا (لورانس) التوجه الشائع للمدن ذات الجامعات. ويقع مسجدنا على أطراف حرم جامعة كنساس ، ويبعد بمالا يزيد عن خمس عشرة دقيقة مشيًا على الأقدام من أبعد النقاط لأرض الجامعة، وما لا يتعدى الدقائق العشر بالسيارة من أى بقعة فى المدينة. يعيش فى المدينة ما يربو على ٧٠٠ مواطن من المسلمين ومن المسلمين الوافدين المقيمين (بعض الإحصاءات تقترب بأعدادهم من ألف وأربعمائة شخص)، فى حين لا يزيد من يحضرون صلاة الجمعة عن عشرين فردًا منهم، أما بقية المجموعة فهم حوالى مائتين من الطلاب القادمين من وراء البحار. هناك ما لا يقل عن مائتين وخمسين من الطلاب الأمريكيين ذوى الآباء المسلمين يدرسون فى جامعة كانساس لا يدخل أى واحد منهم إلى المسجد. وقد شهدت مجموعتنا حوالى ثلاثين أمريكيًا اعتنقوا الإسلام فى الخمس عشرة سنة الأخيرة، وتوقف معظمهم تقريبًا عن الحضور إلى المسجد بعد وقت قصير من دخولهم الإسلام، وعلى وجه اليقين فقد ارتد عن الإسلام ما لا يقل عن عشرة أشخاص منهم. تضم المدرستان الثانويتان المحليتان ما يقرب من ستين تلميذًا أحد والديهم من المسلمين ولا يحضر إلا البعض القليل منهم إلى المسجد أو إلى المناسبات الاجتماعية. تتعامل المساجد التى يديرها المهاجرون فى العادة بشكل أفضل من تلك التى تدار بواسطة الطلاب الأجانب، لكنها تتصف أيضًا بضعف المشاركة من جانب مسلمى المنطقة وندرة حضور المسلمين المولودين فى أمريكا.

وعلى الرغم من عدم اهتمام الغالبية الساحقة من المسلمين الأمريكيين ذوى الأصول الإسلامية بالمسجد، فلا وجود لأدنى قدر من الاهتمام داخل المؤسسة الدينية الإسلامية. ويشار إلى هذه القضية فى بعض الأحيان فى الدوريات

والمؤتمرات الإسلامية، لكنها لا تحظى إلا بأقل القليل من الاهتمام إلى الدرجة التى تجعل المرء يظن بأن مسلمى أمريكا إما لا يشعرون بوجود مشكلة أو أنهم وببساطة لا يعبأون. وحتى إذا اقتصر الأمر على الاستغاثات من أجل المساعدة، حيث تلقيت منها عبر السنوات من آباء وأمهات لأطفال قد ارتدوا عن الإسلام، فقد كنت افترض أن الأمر يعود إلى الجهل والتوهان بسبب صمت المجتمع الإسلامى فى هذا الصدد، وفى هذه الحالة أيضًا لماذا يحدث تجاهل لهذا الموضوع؟ إننى ما زلت عاجزًا عن الوصول إلى إجابة، لكننى أظن أن الأمر يأتى من خليط من الإنكار والقدرية والخجل والانهزامية. ويرى بعض المسلمين فى حفنة الشباب الذين يشاركون فى المؤتمرات الإسلامية علامة على أن كل شىء على ما يرام، بينما يملك آخرون اليقين بأن الله سوف يقلب الأمور رأسًا على عقب بمعجزة منه، وكثير من الآباء يحسون بالخزى الشديد والخجل من مناقشة الصعوبات التى تكتنف أبناءهم بخصوص الدين، بينما يشعر آخرون بالعجز التام، ولا يملكون أى بادرة أو فكرة بخصوص التعامل مع المشكلة.

وفى الغالب سوف يستمر الابتعاد الجماعى لأبناء المسلمين عن المسجد، وكذلك الارتداد عن الإسلام أيضًا، ما لم يقرر المجتمع الإسلامى المواجهة الصادقة مع المشكلة، ولن يبدأ ذلك ما لم يتم فهم الأسباب الكامنة وراء المشكلة. وبالطبع، قد يكون الأمر راجعًا - مثلما يفترض بعض زعامات المسلمين بدون دليل - إلى أن الخطأ يقبع بالكامل فى الحرمان من الحقوق. فإنهم ببساطة قد فضلوا اللذات الوقتية لثقافة البوب على متطلبات الحقيقة، لكن قد يكون الأمر كذلك فى أن المجتمع الإسلامى لا يبذل الجهد الكبير الكافى للوصول إلى هؤلاء الناس، أو أنه يرتكب أخطاء جوهرية فى هذا الخصوص. من الجلى، أن الأسباب التى وراء الخروج الجماعى للمسلمين المولودين فى أمريكا من مجتمع المسلمين هناك لن يمكن فهمها ما لم تتوافر الإرادة والقدرة على سماع شكاواهم، وهنا تكمن العقبات الكأداء. الأمر لا يشبه المحروم من الحقوق الذى سوف يأتى مسرعًا إلى المسجد؛ لكى يشرح ويفسر أسباب غيابه. لو كانوا مستمرين على روابطهم المتعددة أو اهتماماتهم بمجتمع المسلمين لما ابتعدوا على الأرجح عنه. ومن المفترض أن لدى أقاربهم بعض المعرفة

القليلة عن أسباب عدم اكتراثهم، لكن مثلما ذكرنا سلفًا فإن ثقافة المسجد هى ثقافة شرق أوسطية تقليدية، وغالبًا ما تتسم بصفة «ثقافة الخجل» حيث لا يخطر على بال المرء نشر غسيل أسرته القذر. هناك دراسات أكاديمية حول الصورة الشبيهة بالمسلمين فى الغرب، لكن لاتوجد دراسة اطلعت عليها منها تستكشف بطريقة منهجية جذور الجيل الثانى والابتعاد الارتدادى بعيدًا عن المسجد. وأرجو ألا يطول الوقت لحين ظهور مثل هذا النوع من البحث.

على الرغم من أن هذا الكتاب ليس استقصاء من هذا النوع، لكنه استمد مادته من ظاهرة انفصال مواليد الوطن (أمريكا) عن المسجد. وقد حدث لسبب أو لآخر عقب إصدار كتابى «حتى الملائكة تسأل»[1] أن بدأت فى تلقى عدد كبير من الرسائل الإلكترونية والرسائل الأخرى من شباب ذوى آباء مسلمين، وممن دخلوا الإسلام، ومن غير المسلمين، يطلبون منى تبنى تنويع أكبر من القضايا الدينية. وقد أظهر الجزء الأعظم من هذه الرسائل بعض هواجس الشك المتعلقة بالإسلام، واعترفت نسبة محسوسة بشكوك فى العقيدة، ووصف العديد من الذين ذكروا أسماءهم بأنهم قد ارتدوا عن الإيمان أو بأنهم على شفا فعل ذلك، وشعر الكثيرون بأن شكوكهم قد جعلتهم بالفعل مرتدين. أصابتنى صدمة عميقة؛ لأن أشخاصًا قد أحدقت بهم الشكوك، وقد أحسوا بالحاجة لوضعها موضع الاختبار، كما شعرت بالانزعاج بسبب أنهم التمسونى وعثروا علىّ؛ فقد شعرت دائمًا بأننى غير كفء لهذه المهمة. بمرور الزمن تكرر تعرضى لبعض الأسئلة حتى أننى وضعت ملفًا فى حاسبى الآلى بعنوان «**حتى الخليل إبراهيم يريد أن يطمئن**» حيث جمعت الاستفسارات وكذلك إجاباتى عليها، والتى كانت تتعرض للمراجعة دوريًا. بهذه الطريقة أمكننى أن أستعيد بسرعة ردود أفعالى الأولية حول هذا الموضوع فى حالة إثارته مرة أخرى فى محادثة مختلفة، تحولت معظم هذه الإجابات إلى أن أصبحت مختصرة للغاية، لكن جاء عن البعض منهم مناقشات مطولة. تشكل هذه الأخيرة (المطولة) فصول هذا الكتاب، وألحقت بهذه الفصول بعض الأسئلة التى تثار فى العادة وإجابات عليها من النوع الأول (المختصرة).

---

(١) نشرته مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٢م.

أخذت نسبة كبيرة من المراسلات قضية تتعلق بعلم العقيدة فى الإسلام، مما بدا مثيراً لبعض الدهشة فى أول الأمر، فعادة ما يؤكد الداخلون الجدد إلى الإسلام على بساطة علم العقيدة فى الإسلام وترابطه المنطقى. وحيث إن علم الإلهيات هو تنظير بشرى للذات الإلهية وأعمالها أو تجلياتها، وبذلك فهو قابل للنقص وعدم الكمال بغض النظر عن حسن إعمال الفكر فيه. وفى الحقيقة، فإن ميل المسلمين إلى إضفاء المثالية على رأى علماء الماضى، وبالتصانيف العقلية لعلماء الإلهيات القدامى على وجه الخصوص، يكمن خلف الكثير من المراسلات المتعلقة بـ«التناقض بين الإيمان - العقل». لذلك، فقد حاولت أن أجعل من الواضح الجلى فى ردى على استفساراتهم بخصوص الإلهيات، أننى لا أقدم إليهم الحقيقة التى لا مراء فيها، ولكننى أشاركهم فحسب فى خبرتى الذاتية التى جاءت من محاولاتى للفهم والقبول خلال قراءتى للقرآن، ومواجهتى للقضايا التى سدت ذات مرة طريقى للإيمان بالله. وهكذا ففى الفصل الأول سعيت إلى إعادة خلق- ما أمكننى ذلك- خبرتى الأولى فى قراءة القرآن. وأنا أقول «إعادة خلق» بدلاً من «إعادة سرد»؛ لأنه من المستحيل إعادة شريط تلك الخبرة فيما يتعدى الأعوام العشرين الأخيرة. لذلك يتأسس الفصل الأول على خلاصة من إعادة تجميع للقاء الأول مع القرآن ملحقًا به ما يربو على عقدين من الانعكاسات المتعلقة به. أما الأفكار الجوهرية المتعلقة بعلم الإلهيات، والتى قدمتها فهى متضمنة فى كتاباتى المبكرة؛ لكننى كنت آمل أنه قد يكون من الأسهل الإحالة إليها إذا قدمت فى سياقها التجريبى الأصلى.

ساحة التناقض الأخرى الشائعة لهؤلاء الذين اتصلوا بى تتعلق بالتصنيف الكلاسيكى لمراتب رواية الحديث. وبعد أن اقتربت من هذا الموضوع باختصار فى كتابى «**النضال من أجل الاستسلام**»[1] فقد وطدت العزم على ألا أعود على الإطلاق إلى الكتابة أو المحاضرة عنه مرة أخرى. وبالرغم من أننى قدمت ما شعرت بأنه كان دفاعًا عن مكانته التقليدية فى فكر المسلمين- وأن يكون محميًا باعتراف الجميع- فكان رد الفعل الأوَّلىّ على ما كتبت سلبيًا بدرجة ساحقة جعلتنى أفترض أن آرائى الخاصة بهذا الموضوع كانت فى غاية الحساسية، على الأقل فى

(١) نشرته دار أمانة.

داخل مجتمع المسلمين، إلى درجة أنها قد لا تخدم غرضًا نافعًا بتكرار نشرها. مع ذلك، وبعد صدور كتاب «حتى الملائكة تسأل»، والذى لم يتعرض لمناقشة «علم الحديث» فقد تلقيت اتصالات كثيرة ومتزايدة من شباب مسلمين تعكس تعبيرًا عن شكوك لها اعتبارها حول صحة وسلامة التصنيف التقليدى للحديث، ثم تستدل من تلك الشكوك بأن الدين فى مجمله عرضة للشك. ويبدو أن القاعدتين الرئيسيتين اللتين تصدر عنهما هذه الشكوك هما المواقع المعادية للإسلام على شبكة الإنترنت، إضافة إلى التعرض للأبحاث الأكاديمية الغربية التى تفند علم الحديث النبوى. وليس فى مقدروى أن أحصى بكل ثقة مدى تغلغل مثل هذا التشكك، حيث إن الأفراد الذين اتصلوا بى لا يمثلون انتقاء عشوائيًا، لكن من خلال المراسلات التى تلقيتها والمناقشات التى دارت خلال تجوالى عبر الوطن، ينتابنى شعور بأن فقدان الثقة فى علم الحديث يلقى انتشارًا ذا قبول بين المسلمين المولودين فى أمريكا. ولسوء الحظ، فهنا أيضًا لاوجود على أرض الواقع للمناقشة فى هذا الصدد فى المؤتمرات الإسلامية أو فى النشرات والإصدارات الخاصة بمسلمى أمريكا[1]، قد يبدو الأمر على وجه الحقيقة فى هذه الحالة بأن المؤسسة الدينية ليست على معرفة بوجود مشكلة، أوربما أن الوثوق فى التصنيف التقليدى لمراتب الحديث لا يشكل قضية بالنسبة لأول المعنيين به. رغم ذلك، إذا كانت الخلافات مع الحديث تساهم فى إزالة التناقض لدى العديد من المسلمين المولودين فى أمريكا، فإنه يصبح من الواجب على الزعامات الفكرية لمجتمع المسلمين العمل على تشجيع وتعزيز النقاش الحاوى للمضمون حول هذه المسألة. علاوة على ذلك، فإذا كان هناك تيار متنام من الشكوك التى تتعلق بالحديث داخل مجتمع المسلمين على اتساعه، فمن المرجح أن يكون رذاذه قد طال بالفعل قرّاء الدوريات والمجلات الإسلامية، إضافة إلى المشاركين المنتظمين فى المؤتمرات الإسلامية.

ليس بعيدًا الزمان الذى كانت فيه الأبحاث الغربية عن الحديث النبوى مجرد فرع أكاديمى عزلت عنه الغالبية الساحقة من المسلمين وحجبت بأمان. لم يستجب إلا

---

(١) هناك بعض الاستثناءات القليلة. على سبيل المثال: «جمال الدين زارابوزو» «السلطة والأهمية التى للسنة» منشورات البشير، دينفر عام ٢٠٠٠م.

القليل للغاية من المؤلفين المسلمين للنتائج التى توصل إليها الباحثون من غير المسلمين، كما تجاهل معظم هذا القليل أحدث التطورات وأشدها أهمية فى هذا المجال. يمثل كتاب «**دراسات فى كتب الحديث الأولى**» لمؤلفه «م. م. عزمى» استثناء مهمّا، لكنه نشر عام ١٩٦٨م، ولم يظهر من وقتها أى شىء من نوعه على وجه التقريب[١]. وفى وقتنا الحالى، هناك حركة فوارة فى أبحاث غير المسلمين حول الحديث. وفى حين كان الاهتمام فى الماضى القريب مقصوراً على المتخصصين من غير المسلمين بخصوص هذه الدراسات، فقد بدأ الجيل الثانى من المسلمين ومن الداخلين فى الإسلام فى أمريكا فى اكتشاف هذه الأبحاث، والتى يمكن الوصول إليها بكل سهولة داخل مكتبات الجامعات القريبة، ومن خلال شبكة الإنترنت بسهولة أقل. بذلك، إذا أمل علماء المسلمين فى الرد الفعّال على الشكوك المتصاعدة والمتعلقة بالحديث، فإنهم سوف يحتاجون إلى معرفة الأبحاث الحالية فى هذا المجال. يتضمن الفصل الثانى بعض الانعكاسات التى تدور حول هذه الخيوط، لا يمثل ذلك دفاعًا عن ولا انتقادًا لعلم الحديث التقليدى. لكننى بدلاً من ذلك بذلت كل ما فى وسعى، اعتمادًا على الجزء الأكبر من الأسئلة التى تلقيتها، فى توقع بعض مساحات النقاش المستقبلى. يتوجب تذكير القارئ بأننى لست من المحدثين (المتخصصين فى علم الحديث رواية ودراية)، لكننى مسلم أمريكى عادى، يناضل من أجل الحصول على فهم أفضل لأحد مجالات الفكر الهائلة ذات التاريخ البالغ التعقيد والحيرة.

على الرغم من أننى تلقيت عددًا ضخمًا من الاستفسارات عن علم العقيدة والحديث، كان من النادر أن تقتصر المراسلات على هذين المبحثين.

النموذج السائد كان طرح قائمة من الأسئلة التى تتضمن احتجاجات ضد وجهات نظر متنوعة، وممارسات وعادات تنشرها مؤسسة المسجد. وفى تقديرى أن هنا تقبع البداية لعدم اليقين الذى يخالج العديد من المسلمين المولودين فى أمريكا، ولا يتعلق ذلك بالتفكير المجرد منهم فى علم الإلهيات أو فى التأريخ، ولكن يقبع فى مشاعر الاغتراب عن المسجد المتأصلة عميقًا داخل النفوس. يناقش الفصل

(١) م. م. عزمى - «دراسات فى كتب الحديث الأولى» - بيروت ١٩٦٨م.

الثالث بعضًا من مسببات نفور الجيل الثانى والداخلين إلى الإسلام من مجتمع المسلمين، والتى تطفو على السطح من وقت لآخر، وبعض المقترحات العامة من أجل التغلب على مسببات النفور هذه.

مثلما ذكرنا من قبل، تضم بقية الكتاب أسئلة محددة تتلوها مناقشات موجزة. تتناقض أحيانًا بعض المقاربات المختلفة لقضية ما بدون تحديد أفضلية لأىٍّ منها، وذلك ببساطة بسبب شعورى بعدم تمتع أىٍّ من المجادلات بميزة فارقة. يتضمن الفصل الثالث أيضًا قرب نهايته عينة من شهادات بعض المسلمين الأمريكيين عن معاناتهم الإيمانية، وقد حاولت من خلال هذه الشهادات والأسئلة الشخصية - وهما يشكلان ما يزيد عن ثلث الكتاب - أن أوفر قطاعًا توصيفيًا دقيقًا لما قد وصل إلىّ.

وحسب ما يشير إليه العنوان، فليس الهدف الرئيسى لهذا العمل هو الحديث بإسهاب عن الإسلام، ولكن التشارك مع القارئ فى منظور لرؤية أصبحت شخصيًا مطلعًا عليها، تتعلق هذه الرؤية بمشكلة ذات أبعاد رئيسية داخل مجتمع المسلمين الأمريكيين، إن الانفصال شبه الكامل المستمر والجلى للمسلمين المولودين فى أمريكا عن المسجد، يعوق ويحبط جميع المحاولات من جانب الأنشطة الإسلامية الرامية لتأسيس مجتمع إسلامى ذاتى الدعم وقادر على البقاء داخل الولايات المتحدة الأمريكية. سوف يكون من التقصير فى حق العقيدة ألا أشارك الآخرين من المؤمنين المهمومين معى فى محتوى الاتصالات التى أجريتها مع بعض أعضاء هذا المجتمع. لهذا السبب، فقد فكرت أنه من المهم أن أكون نزيهًا وموضوعيًا، وألا أتملص مما يثير التناقض، حيث إن الطرح غير السليم للقضية فى صالح موقف محدد أو فى غير صالحه- وبخاصة عندما يتعارض مع التقليد السائد- فإن ذلك لا يخدم إلا المزيد من الاغتراب والتشكك. إننى أدرك وأعرف بكل وضوح مدى ضخامة المشكلة التى يواجهها هذا الكتاب، كما أننى لست الأفضل الذى يصلح لطرحها، لكننى أرى ذلك العمل بوصفه الخطوة المبدئية التى تنتظر مساهمات الآخرين من ذوى الأهلية الأفضل. لذلك لا يعكس العنوان مجرد المطالب والرغبات الكثيرة التى يقوم عليها هذا العمل، ولكن يعكس أيضًا هذه المعرفة والإدراك بها.